ندوة

ليس على الروائي أن يقول كلّ شيء

إبراهيم نصر الله في «حديث الألِف»

يقول الكاتب الأردني الفلسطيني، خلال استضافته في «حديث الألف»، إنّنا نسمع عبارات من أطفال غزّة، علينا أن نبذل جهداً استثنائياً لنتمكّن من قولها

الدوحة ـ **محمد هديب**

إذا كانت الرواية مختلفة عن «الحدوتة» أو «الخرافية»، فلأنها تعيد النظر في التاريخ بأكمله وتطرح رؤية. وهي، بهذا الحكم الذي يدافع عنه الروائي الأردني الفلسطيني إبراهيم نصر الله، تاريخ روائي ليس مطلوباً منه أن يقول كل شيء، ولا أن يسجّل المجرى التاريخي الذي يسجله مختصّوه، بل يكتب لقارئ حيوي قد يرى ما لم يره الكاتب.

في منتدى «حديث الألف» الشهري بالدوحة مساء أول أمس الأربعاء، تطرّق نصر الله عديد المرات إلى علاقة الكاتب بالقراء، بوصفها علاقة تبادلية، فالكاتب ذاته قارئ، ومؤمن بأن ثمة شعراء وساردين متخفّين في كل البشر يصلون إلى الإشراقة، ثم يعودون منخرطين في ماسيهم اليومية. في روايته «أعراس آمنة» (2004)، يظهر فلسطينيون عاديون في غزّة، إذا ما استعملنا وصف «العادية» لمن لا يُنتجون رسمياً في الأدب والفن، وهؤلاء كما يستعيد الكاتب هم أصحاب الإشراقات التي جعلته يحيلها مباشرة إلى ما نراه حالياً في المشهد الفلسطيني على أرض غزّة. يقول: «نحن نسمع عبارات من الأطفال، علينا أن نبذل جهداً استثنائياً لكي نتمكّن من قولها».

عابر للحروب

جال اللقاء مع نصر الله في مساحة إبداعية للكاتب عرفت ذيوعاً عربياً واسعاً وفي الترجمات إلى لغات أجنبية، وكان الضوء أكثر تركيزاً على نتاجه الروائي، وهو لغزارته يصل إلى 22 رواية تتقاسمها روايات «الملهاة الفلسطينية» و«الشرفات». كانت رواية «طفولتي حتى الآن» مفتتح الحوار الذي أدارته الكاتبة سمر يزبك. العنوان يشي بالسيرة، وهي، كما يفصح، تمتد من الخمسينيات إلى 2020، وفيها كما يبدو وكما يحاول تحقيقه من حلم قديم يتشكل حول الحب العابر للحروب، أو رغماً عن هذه الحروب، مشيراً إلى أنه كان طوال نشأته يغبط كتّاباً آخرين حول العالم يكتبون عن الحب.

لكن نصر الله، إذا ما اقتبسنا عنوان روايته «طيور الحذر»، يحذر من أن تكون الرواية سيرة بالتطابق حتى الجزئي. تتنقل روايته «طفولتي حتى الآن» ضمن تيار الوعي عبر سبعة عقود، وتحضر فيها شخصيات مركبة حزينة في واقع مخيم الوحدات للاجئين (جنوب شرق عمّان) وفي الوقت ذاته تعجّ بالضحك. هذه الطفولة حتى الآن يريدها الكاتب ويفصح عنها بالقول إنه يأمل أن تظل حين نمارس الكتابة والفن، فهي تجعلهما يقظين بفعل الدهشة التي إن توقفت توقفت الحياة.

إبراهيم نصر الله مع سمر يزبك في «حديث الألف» (مصطفى الأصفر/ العربي الجديد)

بنية ماحية

السيرة عنده «بُنية ماحية» تمرّ على الشخوص وتتحدث عنهم، ثم تتركهم خلفها كما لو أنها مختهم، بينما كان مسعاه الروائي (وكما يصر مسعى الشخوص الروائية) إلى ألا ينتهوا نهايات حزينة، بل استطاعوا بقوتهم وعزمهم مواصلة الحياة. كل واحد من هؤلاء يخوض ذات المعركة التي تُخاض في غزّة الآن للبقاء على قيد الحياة. هذا على المستوى الفردي يراه نصر الله طاقة متدفقة ليروي كل فرد حكايته، بينما يجتمعون ولا بد أن يجتمعوا ليكونوا معاً سردية كبرى تشير إلى شعب اسمه الشعب الفلسطيني. أما إذا قررنا حسم هوية الكتابة بين السيرة والتخييل، فهو يفضل الحديث عن سيرة ثقافية مضمرة ليس في الرواية فحسب، بل في أي منجز إبداعي، وعليه لا بد من احتراس فني يطالب به، ويقضي بأن يخفي الكاتب الوجود السيري المباشر في العمارة الروائية، لأنه يفسدها. يحضر الروائي أكثر في التعريف، لكان الخانة المخصصة لا تكفي حتى لخيارين. وبالطبع لا يتحمّل وقت اللقاء تتبع مسيرته، وهي خصبة في الرواية والشعر الفصيح والغنائي بالدارجة بصحبة فرقة «بلدنا»، وأدب الأطفال والتصوير الفوتوغرافي والرسم والسينما المشغوف بها، ويشاهد سنوياً بضع مئات منها ويكتب فيها قراءاته.

هادئ بحر غزّة

غير أن القراءات التي تخللت مساحة الحوار مع الروائي قدمت مقاطع شعرية من مجموعاته التي تبلغ 15 ديواناً، وخصوصاً منها التي تتصادى مع النكبة الجديدة في غزّة، كقصيدته الطويلة «الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق»، التي كتبها قبل أربعين عاماً، وهي عن أربعة شبان كان يحلم في طفولته الأولى بامتلاك كتاب خاصّ به

ثمّة شخصياتٌ من مجموعة «غيفارا غزّة» استشهدوا في عملية فدائية في رفح.

بصوت الإعلامي جمال عز الديني، استمعنا إلى «هادئ بحر غزّة، ماء وأشرعة، زرقة وصباح عريض، ونافذة للنوارس أو جدول في الوريد» إلى أن نبلغ المقطع الشهير: «لا أقول لك الآن إني سأمضي إلى الموت، لا أعشق الموت، لكنه سلّمي للحياة». لا يترك الكاتب نفسه أسيراً للثقة المجانية في أي شيء ما عدا قيماً كبرى. هذا ما يشير إليه حين يقول إن شخصيات رواياته ليست سوى بشر بما فيهم من عيوب وبما لديهم من أفكار ينبغي أن تكون عرضة للتأمل. أما القيم التي ينتمي إليها دون مواربة فمنها الحرية وحق الناس في الحياة.

ملك الجليل

هذا سياق يجرّ للحديث عن «الأبطال» وخصوصاً روايته «قناديل ملك الجليل» (2011)، وفيها تحضر شخصية ظاهر العمر (1695 - 1775) الذي أسّس كياناً في فلسطين متمرداً على السلطنة العثمانية، مثلما حضر من قبل في «زمن الخيول البيضاء» (2007) فوزي القاوقجي القائد العسكري في ثورة 1936 وقائد جيش الإنقاذ في حرب 1948. إعادة النظر في التاريخ التي سبق الحديث عنها روائياً جعلته يُسقط القاوقجي من مدونة البطولة لدوره الذي راه كارثياً إبان الثورة الفلسطينية وحرب 1948. بينما لظاهر العمر الزيداني شأن آخر. وهو هنا يقول: «إننا لسنا بحاجة إلى اختراع أبطال»، إلا أن شخصية ظاهر العمر عبر نصف قرن من التمرد على إمبراطورية مترامية الأطراف أنشأ كيانية فلسطينية تشبه إلى حد بعيد مواصفات الدولة، لجهة فرض الأمن والزراعة والتجارة، بل وإقامة الأحلاف السياسية. يقرر الكاتب أن هذه الشخصية مظلومة، و«من العار أن تُترك خارج التاريخ الأدبي». اكتشف ذلك أثناء عمله على رواية «زمن الخيول البيضاء»، وكان يرغب في تعزيزها بشخصية ظاهر العمر، لكنه ذهب إلى المدى الأبعد بتخصيص رواية كاملة ستصدر في 2011، في الوقت الذي لم يتوافر له من بحث تاريخي صادر عن العمر سوى سيرتين صغيرتين مجموع صفحاتهما فقط 80 صفحة.

استلزم التحضير لها، كما يشير، وقتاً طويلاً نُجمت عنه مادة تاريخية تعادل أطروحة دكتوراه، وعليه جاءت الرواية في 560 صفحة كان التاريخ فيها مثل الهيكل العظمي بينما حياة الرواية روح الإنسان.

إطلالة

تفصيلٌ لا يتعلّق بالواقعية بل بالصدق

الروائي في البيت

كتّاب معظم الروائيّين السوريّين عن البيئات التي ينتمون إليها، وكان البيت من الداخل، أي علاقات العائلة، من أهمّ المحاور في أعمالهم

ممدوح عزام

هل من الضروري أن يكون الراوي، أو الروائي أبداً للبيت كي يستطيع الكتابة عنه؟ أي هل من الضروري أن يكون الروائي عارفاً خبيراً بأحوال البيت في المكان الذي يشهد حضور شخصياته من الداخل، أي من تفاصيل الحياة اليومية التي لا يعرفها الناس الذين يعيشون في الخارج؟

والمقصود هنا البيت بالمعنى الشائع الذي نستخدمه في بلاد الشام، أي البيت الدمشقي أو الحمصي أو الحلبي أو غيرها. تتقاطع الآراء بين نعم ولا. أما نعم، فإنّ الرواية التي تريد أن تكون شخصياتها من أبناء أيّ بيئة، والكلمة تتّسع لمدينة وقرية وهم يخوضون في مشاكل، ومسائل، وقضايا، ومصاعب، وأفراح الحياة، لا يمكنها إلّا أن تدخل إلى البيت حيث يكون الروائي، أو الراوي، وكلاهما يتناوبان المسؤولية، من القادرين على معرفة أولئك الذين يعيشون بداخله، لا في سلوكهم الخارجي، بل، في خصوصياتهم الروحية والنفسية، في عاداتهم وتقاليدهم، في لهجتهم وطريقة تعبيرهم عن أنفسهم.

لا يتعلّق هذا بالواقعية، بل بالصدق. تستطيع رواية مثل ثلاثية نجيب محفوظ أن تقدّم للقارئ اقتراحاً خصباً لمعنى العلاقة بين الرواية والبيت، إنّها ابنة بيوت المدينة، وأحيائها، وغرف النوم والطعام والطبخ فيها. لكن التسلّل إلى أيّ مكان حميم في البيوت لا يكون الغرض منه مشاهدة الحميم ذاته وحسب، بل فحص الطرائق والأساليب التي يتعايش فيها الرجال والنساء، بما يوحي بأنّ هذه العلاقات هي خصوصية اجتماعية لا يمكن تقليدها، أو نقلها، أو روايتها، إلّا بوصفها بيئة القاهرة، وربما تكون أيضاً بيئة حيّ من أحياء القاهرة، مثل قصر الشوق، أو السكرية.

ويتكرّر هذا السؤال، وهو سؤال إشكالي، في مواجهة الرواية السورية اليوم: لماذا لم يكتب روائي سوري من الشمال رواية عن الجنوب؟ ولماذا لم يكتب روائي من الساحل السوري رواية عن منطقة البادية وروح سكّانها؟ والبيئة السورية شديدة الخصوبة أيضاً، وهي تجمع مكوّنات غنية وقادرة على منح الروائيّين مقترحات لا نهاية لها من أساليب العيش، من الشمال حيث الكرد والعرب إلى الوسط حيث بيئة البادية، إلى المدن الوسطى والساحل والجنوب. ويمكن لهذا السؤال أن يسمح لنا بطرح سؤال آخر هو: هل يستطيع الروائي أن يكتب مثل هذه الرواية فعلاً إذا لم تكن لديه معرفة بالخصوصيات الحميمية؟ ولكن ألا تُعبّر ثلاثية محفوظ أيضاً عن روح مصر؟

لماذا لم يكتب روائيٌّ سوري من الشمال رواية عن الجنوب؟

لا تنفع الأجوبة النظرية قطعاً، بل الأعمال الروائية. ولهذا فإنّ مقاربة المسألة عملياً تقول إنّ معظم الروائيّين السوريّين كتبوا عن البيئات التي ينتمون إليها، وكان البيت من الداخل، أي علاقات العائلة، واحداً من أهمّ المحاور في أعمالهم، سواء كانت عن حلب أو دمشق أو الحسكة أو درعا والسويداء، وقد نالت دمشق الحصّة الكبرى من كتابة السوريّين عن مدينة، بغضّ النظر عمّا إذا كانوا من أبنائها أم لا.

ولهذا الأمر أسباب سياسية واجتماعية ترتبط بالتغييرات السكّانية، وانتقال مئات الآف السوريّين من كافّة أرجاء البلاد إلى العاصمة في العقود الأخيرة من القرن الماضي. ماذا قدّمت الرواية، وكيف رأى الروائيون البيت؟

(روائي من سورية)

فاتح المدرّس، زيت على قماش، 125 × 225 سم (1980)

مشاهدة

دانييل حذوة نافذة لا تنية على فلسطين

من تشيلي إلى غزّة

يُعرّف برنامج «نافذة على فلسطين»، الذي يقدّمه المعماري والسياسي التشيلي من أصل فلسطيني، بالقضية الفلسطينية، ويُضيء على العدوان المستمرّ

سنتياغو (تشيلي) ـ **العربي الجديد**

«أنا دانييل حذوة، مُواطن تشيليّ من أصل فلسطيني، وُلدت مثل الكثيرين من الفلسطينيّين خارج أرضي، بسبب الشتات. تُعدّ الجالية الفلسطينية في تشيلي الأكبر من نوعها في أميركا اللاتينية، ويُقال إنّ عددها يصل إلى ثلاثمئة ألف، ولكنّنا ملايين من الفلسطينيّين الموزّعين في كافّة بقاع الأرض، بعيداً عن وطننا الأم، ملتزمون بهويّتنا وبأرضنا وبثقافتنا ونضال شعبنا. أرضنا كانت وستبقى دائما فلسطين».

بهذه المقدّمة، يبدأ المهندس المعماري والسياسي التشيلي من أصل فلسطيني، دانييل حذوة (1967)، برنامجه التلفزيوني «نافذة على فلسطين»، الذي أعلن تلفزيون «هسبان 1»، ذو الانتشار الكبير في تشيلي، وفي أميركا اللاتينية بشكل عام، عن إطلاقه، على خلفية حرب الإبادة الجماعية التي تشنّها «إسرائيل» على الشعب الفلسطيني منذ الثامن من تشرين الأوّل/ أكتوبر الماضي. البرنامج الذي بدأت عروضه مع بداية العام الحالي، وبُثّت منه أربع حلقات حتى الآن، يهدف إلى توضيح حقيقة ما يجري في غزّة، وسرد تاريخ القضية الفلسطينية، إضافة إلى عرض ملامح الثقافة الفلسطينية وتعريف الجمهور اللاتيني بها، لا سيّما في ظلّ السردية الصهيونية التي تسيطر على وسائل الإعلام في القارة اللاتينية.

مبدأ كل حلقة واحدٌ، بعد شارة البداية، يطلّ علينا مقدّم البرنامج أمام جمهور غالبيته من الجالية الفلسطينية في تشيلي، يلبسون جميعهم الأسود، حداداً على أرواح الشهداء الذين سقطوا في العدوان الحالي، إضافة إلى الكوفية الفلسطينية. أمام مقدّم البرنامج توجد شاشة تعرض مستجدّات الأحداث وتروي تفاصيل المجازر التي يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي في غزّة.

يتّصل حذوة، في كلّ حلقة، بخبير أو صحافي عالمي لتحليل الأحداث الراهنة، ويستضيف شخصية ثقافية من تشيلي أو من أصل فلسطيني للحديث عن الثقافة الفلسطينية، وعمّ إذا كانت هذه الشخصية قد زارت فلسطين، وحول انطباعاتها عن الزيارة إذا حدثت؟

تأخذ الثقافة الحصّة الأكبر من البرنامج، حيث يتوقّف حوذة في كل حلقة عند موضوع ثقافي يعرّف بالقضية الفلسطينية، إمّا عبر مناقشة كتاب يتناول تاريخها، أو كتاب يدحض السردية الصهيونية، أو من خلال تعريف القارئ على معالم الثقافة الفلسطينية، وأبرز رموزها من شعراء وكتّاب وفنّانين ورسّامين، كما يتطرّق إلى الإبادة الثقافية الممنهجة التي يمارسها الاحتلال من أجل محو مقوّمات الهوية الفلسطينية، وليس استهداف الشعراء والكتّاب والصحافيّين والمعالم التاريخية والمؤسّسات الثقافية إلّا دليلاً على ذلك.

يتوقّف حذوة مطوّلاً عند مفاهيم ومصطلحات مثل «المقاومة» و«الصمود» لتوضيح معناها، وتأطيرها في سياق القضية الفلسطينية، كما تحضر مواقف البلدان الغربية وازدواجية معاييرها في نقاشات البرنامج، إضافة إلى المسائل الاجتماعية والتاريخية، في محاولة لتسليط الضوء على فلسطين قبل الاحتلال وبعده.

إضاءة على الثقافة الفلسطينية وتأطيرٌ لمفاهيم ومصطلحات القضيّة

من البرنامج

فعاليات

ليون مع فلسطين عنوان التظاهرة الثقافية التي تُنظّم عند السادسة من مساء السابع عشر من الشهر الجاري، في مدينة ليون الإسبانية، تضامناً مع الشعب الفلسطيني وتنديداً بحرب الإبادة التي تشنّها «إسرائيل». تشمل التظاهرة قراءات شعرية، وورشات رسم للأطفال، وجلسات حوارية حول القضية الفلسطينية.

من النهر إلى البحر، فلسطين سوف تنتصر عنوان المظاهرة الشعبية التي تنظّمها «لجنة تحرير فلسطين» في العاصمة المكسيكية، عند الثالثة من بعد ظُهر غدٍ الأحد. تنطلق المظاهرة من أمام السفارة الأميركية في العاصمة، وتتجمّع في ساحة زوكالو الرئيسية، وترفع شعارات: **أوقفوا الإبادة الجماعية**، و**سوف نهزم الصهيونية**، و **معاً من أجل تحرير فلسطين**.

حتى التاسع من آذار/ مارس المُقبل، يستضيف غاليري «Escape» في بيروت معرض **منير وجه الأرض** للفنّان اللبناني **مارون الحكيم**. يضمّ المعرض 43 لوحة رُسمت بين عامَي 2022 و2023 بتقنيات وأساليب مختلفة، إلى جانب 12 منحوتة برونزيّة جرى العمل عليها بين عامَي 1992 و2021 وصُبّت العام الماضي.

القاهرة منوّرة بأهلها (1991) عنوان الفيلم الذي تعرضه منصّة «أفلامنا» حتى نهاية الشهر الجاري، للمخرج المصري **يوسف شاهين** (1926 - 2008/ الصورة). يمزج شاهين في شريطه (23 دقيقة) بين التسجيلي والروائي، لتقديم صورة عن القاهرة، تلك العاصمة الصاخبة التي تُعدّ مركزاً رئيسياً في العالم العربي.